﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

على العبد أنْ يذكرَ نعمةَ الله عليه في الإرسالِ والإمساكِ والمنعِ والعطاءِ

هذه الآيةُ من جنس الآية التي قبْلها في توفُّر العزائم والنّيّات والهِمَم على باب الله وحده، فالآية قبْلها: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، فكان معناها القصرَ، والحصرَ في انفراده سبحانه بمفاتح الأمور ومغالِقِها، ثمّ جاءت هذه الآية لتقرير مضمون ذلك، والتّأكيدِ عليه، بإعادة معنى ذلك القصر والحصر في انفراده سبحانه بالخالقيّة والرّازقيّة، اللّذَين يجري بهما ويحصلُ منهما الإرسال والإمساك في الآية السّابقة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: أصلُ (أفك) يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه، يقال: أَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيْءِ: إذا صَرَفْتُهُ عَنْه، والإفكُ: كلُّ مَصروفٍ عن وجهِه الَّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه[1]، والمعنى في الآية: أي: تُصرَفونَ عنِ الحَقِّ[2]، فـ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: منَ الأَفْك بالفتح، وهو الصّرْف، يقال: ما أفَكَك عن كذا، أي ما صرفك عنه، وقيل هو منَ الإفك بالكسر، وهو الكذبُ.

مَنْ ذكرَ النِّعَمَ ونسي المُنعِمَ فقد انقلبَ مصروفًا إلى سوء السّبيل

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ينادي الله عبيدَه منَ النّاس جميعًا، ونداؤه لهم هو خطابُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أفك).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 328.

تنبيهٍ، وهو من فتْحِ الرّحمةِ لهم أن يُناديَهم، ومن إمساك الشّرّ عنهم أن يستجيبوا لندائه، وهو يأمرُهم أن يذكروا نِعَمَه عليهم ذِكْرَ تعديدٍ لها، واعترافٍ بها، وإسنادِها إلى المُنْعِم بإيجادها وإيصالِها وتمكينِهم منَ الانتفاع بها، فإذا ذكروها ذكروا اللّه، وإذا ذكروا اللّه بالنِّعَم أحبّوه وأطاعوه وأنابوا إليه؛ ولذلك لمّا كان ذِكْرُ اللّه هو المقصود من ذِكْر النِّعمة قال سبحانه على سبيل التّقرير والتّسجيل: هل من خالقٍ لكم ولِما أنعم به عليكم أحدٌ غيرُ اللّه، فيستحقُّ الولاءَ والعبوديّةَ دون اللّه، ذلكم اللّهُ الذي أوجدكم بالخلْق، وأمدّكم بالرّزْق، وسخّر لكمُ السّماءَ والأرضَ وعاءً لِما أمدّكم به من تلك الأرزاق؛ ليشملكم رزْقُه من فوقكم منَ السّماء، ومن تحت أرجلكم منَ الأرض، وغايةُ ذلك: إقرارُكم واعترافُكم بحقيقة أنّه لا إله إلّا اللّه، فبأيّ حالٍ وبأيّ منطِقٍ تنصرفون عنه وتنقلبون عن سبيله إلى سُبُلِ الشّرك التي لن تؤدّي بكم إلّا إلى سوء المُنْقَلَب، والجزاءُ من جنس العمل، فلا تأفِكوا، وارجعوا إلى حال الاستقامة، ولا تستمرّوا على حال النّكسة والإفْك.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ممّا قبْله:

جملةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ استئنافيٌّ مؤكِّدٌ ومقرّرٌ لِما قبْله، فلمّا قرّر بأسلوب الشّرط والجزاء - الذي يحفّز النّفوسَ على اليقين والاستبشار بموعد اللّه أنّ ما يفتحه اللّه لا غالِقَ له، وما يمنعُه اللّه لا مرسِلَ له، وكان ذلك من أجلّ النِّعَم والقيَم أن تنجَمِعَ هِمَمُ النّاس على مقصودٍ ومصدرٍ واحد منه وإليه المقاديرُ والمصائرُ، وكان ذلك عِصمةً لهم منَ التّوزّع أشتاتًا في تفاريق السّبُل وتباعيض المتعلَّقات، ومختلَفِ الجهات بما يفسخُ العزائم وينقضُ الهِمَم ويفوّتُ المقاصد والأغراض - أتبع ذلك بأسلوب النّداء عليهم بما يقرّر ذلك ويصرّح

لا خالقَ للنِّعَم إلّا اللّه، فهو سببُ كلِّ نعمةٍ، وإليه وحدَه إيجادُها

به، وهو ثبوتُ نعمة الله عليهم، وثبوتُ أنّه لا خالق للنِّعَم إلّا هو، فهو سببُ كلِّ نعمة، إليه وحده إيجادُها، ومنه وحده إيصالُها، فكانت هذه الآية بامتنانِ النّداء، مقرِّرةً لموعود الشّرط في الآية التي قبلها[1].

دلالةُ استهلالِ الخطابِ بالنّداءِ:

التّذكرةُ بالنِّعَم من جوالب شُكرِ المُنعِم

النّداءُ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾؛ للامتنان على العالَمين بالإنعام، وغرضُ النّداء ظاهرٌ في جملة جواب النّداء وهي قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ فالغرضُ التّذكرةُ بفيوضات النِّعم التي لا ينقطع تواترُها على النّاس ما قامت بهم حياة.

ويدلُّ على الاهتمام بالمنادَى والعنايةِ بمضمونه؛ لأنّ النّداء يتضمّن التّنبيه؛ ولهذا إذا قلتَ للطّالب: يا ولد! فإنّه ينتبه، فتصديرُ الحكم بالنّداء يدلّ على العناية به؛ لأنّ النّداء يفيد التّنبيه[2].

معنى(أل) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

النّاسُ عيالُ الله وهو أرحمُ بهم من أنفسهم

(أل) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وهو المنادَى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، جنسيّةٌ؛ لاستغراق الأفراد، والاستغراقُ بين الحقيقيّ، أوِ العرفيِّ، والعرفيُّ أظهر؛ لأنّ المقصود بالنّاس مَنْ يفهمون ذلك الخطابَ؛ لصلاحيتهم للتّكليف والتّلقّي، فيخرج منهمُ المجنون ومن في حكمه ممّن اتّصف بموانع الأهليّةِ في التّكليف والخطاب.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في تسمية الشّكر بالذِّكر:

الـذِّكْـرُ هـو آلـةُ إظهارِ الشّكر

المرادُ بالذّكر في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ الاعترافُ بالنّعمة وشكرُها، والتّعبيرُ عن ذلك بالذِّكر من باب تسمية الشّيء بسببه؛ لأنّ ذِكْرَ النّعمة أوّلًا بالقلب واللّسان هو سببُ شكرها، فيكون ذلك مجازًا مرسلًا لعلاقة السّببيّة، أوِ التّعبير بالذِّكر وإرادةُ الشّكر هو

(1) صافي، الجدول: 11/ 251.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 29.

من إطلاق الجزء وإرادةُ الكلّ؛ لأنّ الذِّكر باللّسان هو من شُعَبِ الشّكر؛ لأنّ الشّكر على النِّعم يقع بقول اللّسان واعتقادِ القلب وعملِ الجوارح، فالذِّكر جزءٌ منه، وإنّما خُصّ ذلك الجزءُ منه؛ لكون الذِّكر هو آلةَ إظهار الشّكر، فيكون ذلك مجازًا مرسلًا أيضًا لعلاقة الجُزئيّة[1].

دلالةُ إطلاقِ لفظِ الذِّكرِ في ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾:

المرادُ بالذِّكر في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ التّذكّرُ بالقلب وباللّسان، فهو من عموم المشترك، أو من إرادة القدر المشترك؛ فإنّ الذِّكر باللّسان، والذِّكر بالقلب يستلزم أحدُهما الآخرَ، وإلّا لكان الأوّل هذيانًا، والثّاني كتمانًا[2].

ذكرُ القلبِ من غير اللّسان كتمانٌ، وذِكرُ اللّسان من غير القلب هذيانٌ

دلالةُ إضافةِ النّعمةِ إلى اسمِ الألوهيّةِ:

إضافةُ النّعمة إلى اسم الجليل سبحانه؛ لتعريف النّعمة وتشريفها بإضافتها إلى اسم الكمال الأجلّ، وفي الإضافة إشارةٌ إلى أنّ نِعَم الله لا يقدرُ على إيجادها وإيصالها وقابليّة الانتفاع بها إلّا الله الجامعُ لصفات القهر والجلال والإحسان والجمال.

لا بدَّ في النّعمة من ثلاثة أمور إيجادُها، وإيصالُها، وقابليّةُ الانتفاع بها

دلالةُ إفرادِ النّعمةِ في: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾:

أفردَ النِّعمةَ في قولِه تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنّها اسمٌ أقيم مقامَ المصدر، فيقال: أنعمَ اللّهُ عليه إنعامًا ونِعْمَةً، أقيم الاسم مُقامَ الإنعام؛ كقولك: أنفقت عليه إنفاقًا ونفقةً، بمعنًى واحدٍ؛ ولذلك أفرد ولم يُجمَع؛ لأنّ من حقّ المصدر الإفرادَ؛ لأنّه من حيث دلالتُه على المعنى المجرّد (الإنعام) يتناول القليلَ والكثير بحسب متعلَّقاتِه منَ الأعيان قِلّةً وكثرة، أوِ المرادُ بالنّعمة هنا اسمُ الجنس، يعني جنس الشّيء المُنعَم به وحقيقتُه، والمراد به الجمعُ

المفردُ يفيدُ الاستغراقَ والعمومَ بإضافته

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 10.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 254.

لا الواحد، بلِ المرادُ به الاستغراقُ والعموم، بدليل تعريفه بإضافته إلى اسم الجلالة، والتّعريف بالإضافة هنا تعريفُ الجنس المفيد للاستغراق؛ إذِ المفردُ يفيدُ الاستغراقَ بالإضافة[1].

بلاغةُ الكنايةِ في ذِكْر النّعمةِ:

الخطابُ بذِكر النّعمة في قوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ كنايةٌ عن حفظها، وعدمِ كفرانها، كقولك لمن أنعمتَ عليه: أذكر أياديَّ عندك، تريد حفظَها وشكرَها[2].

بلاغةُ حذفِ متعلّقِ الذّكرِ:

ذِكْـرُ النّعـمةِ كنايةٌ عن ذِكْر المُنعِم

لم يقلْ في السّياق الكريم: (اذكروا نعمت الله عليكم في أيّ شيء وبأيّ كيفيّة) ليقع الذِّكْرُ المأمورُ به موقِعَه المُطابِقَ لجميع حقيقته، وهي الذِّكرُ باللّسان ثناءً، واعترافًا وتحدُّثًا بنعمة الله، والذِّكرُ بالقلب اعتقادًا وانقيادًا للمُنعِم الرّازق، والذِّكْرُ بالجوارحِ بإنفاق النِّعمةِ على النّفْسِ، والإحسان بها إلى الخلْق، وعدمِ الطّغيان بها في الأرض[3].

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ في: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

نِـعَـمُ الـلـه تـعـالى محيطةٌ بالإنسان من كلّ جانبٍ نازلةٌ عليه منَ السَّماء

الجارُّ والمجرور في قوله ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلّقٌ بالإنعام، في قوله: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، وحرفُ الاستعلاء في: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ يفيد إحاطةَ النِّعم بالإنسان من كلّ جانب، حتّى كأنّها مثلُ شيءٍ مُطْبِقٍ مُسْتَعلٍ عليه؛ لتزاحُمِها وكثرتها؛ ولذا لم يقل: (إليكم)، وأيضًا في التّعبير بحرف الاستعلاء إشارةٌ إلى كونها نازلةً عليه منَ السّماء؛ لأنّها منَ الأرزاق المُستودَعَة في السّماء، فالنِّعَمُ مُستعليةٌ على النّاس من هذا الوجه[4].

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 31.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 13.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 31.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 8.

بلاغةُ المجازِ في الاستفهام بـ﴿هَلۡ﴾:

الاستفهامُ في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ إنكاريٌّ في معنى النّفي؛ ولذلك اقترن ما بعده بـ ﴿مِنۡ﴾ التي تُزاد لتأكيد النّفي، واستعمالُ الاستفهام في غير حقيقته التي هي طلبُ الفهم مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الإطلاقُ والتّقييدُ[1].

الاستفهامُ في حقيقته إنشاءٌ، وفي مَجازِه خبَرٌ

وجهُ الكنايةِ في ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾:

جملةُ ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ تقريرٌ بوَحدانيّة الله سبحانه في صفاته وأفعاله والتي منها الخلْق والرّزق، وذلك كنايةٌ عنِ النّظر والفِكَر وما يؤدّي إلى استيفاء ذلك التّقرير وتحقيقِه[2].

عرّف اللهُ نفسَه إلى خلْقه بصفاتِ العطاءِ والإحسانِ

نكتةُ اصطفاءِ ﴿هَلۡ﴾ دون همزة الاستفهام:

إيثارُ التّعبير بـ﴿هَلۡ﴾ دون همزة الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾؛ لِما في أصل معنَى (هل) منَ الدّلالة على التّحقيق والتّصديق؛ لأنّها في الأصل بمعنى (قد)، والسّياقُ لمّا كان بمعنى النّفي، جاء باستفهامٍ أُشرِب معنى النّفي، وذلك يحصلُ بـ﴿هَلۡ﴾، ولا يحصلُ بالهمزة.

(هل) أوسعُ في المعنى وأجمعُ منَ الهمزة

واستُعمل ﴿هَلۡ﴾ دون حرف النّفي، فلم يقل: (ما من خالق غير الله يرزقكم)؛ لأنّ ﴿هَلۡ﴾ لا تتمحّض للنّفي فقط، بل هي تدلّ على معنيَين، النّفي، والاستعجابِ والاستنكارِ المستلزمِ للتّقرير، فهي أوسعُ وأجمعُ في المعنى؛ ولذلك أُوثِرتْ لِغرض النّظم[3].

الاستفهامُ إذا كان بمعنى النّفي أُشرِبَ معنى التّحدّي

معنَى ﴿مِنۡ﴾ في: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ صِلةٌ زيدت لتأكيد النّفي المستفادِ من ﴿هَلۡ﴾، وهي تفيد استغراقَ النّفي كذلك وعمومَه[4].

(1) ابن عاشور التحرير والتنوير: 22/ 254.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 254.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 254، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 242.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 8، 9.

موقعُ قوله: ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ واختلافُ القراءات فيه:

نـفـيُ خـالـقـيّـةِ غـيرِ الله تعالى يفيدُ ثبوتَها له سبحانه وحده

معنى قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، أي: (هل خالقٌ مغايرٌ له تعالى موجودٌ)، على أنّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ المقدّرِ بـ(موجود) أو بـ(لكم)، زيدت عليه ﴿مِنۡ﴾ لتأكيد العموم، و﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ نعتٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ باعتبار محلّه؛ لأنّ محلّه الرّفعُ، ولذلك جاء ﴿غَيۡرُ﴾ مرفوعًا، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر - تواترًا - بالجرّ في ﴿غَيۡرِ﴾ على أنّه نعتٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ باعتبار لفظه[1]، والنّفيُ مع الاستثناء أفاد الحصر[2]، وأيضًا على اعتبار (غير) صفةً لـ﴿خَٰلِقٍ﴾، فيفيد التّركيبُ الحصرَ أيضًا، إلّا أنّ إفادة القصر على معنى الاستثناء نصّيٌّ، والقصرَ بـ﴿غَيۡرُ﴾ على معنى الصّفة تضمّنيٌّ، فمعنى (ما من خالق إلا الله) أفاد الحكمَ، وهو ثبوتُ الخالقيّة لله وحده نصًّا صريحًا، وأمّا (ما من خالقٍ غير الله) فهو نفيٌ لِخالقيّةِ غيرِ الله، ومضمونُه ثبوتُ خالقيّة الله سبحانه[3].

دلالةُ ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ بين الصّفة والاستثناء:

حـقـيـقـةُ الاستثناء إخراجُ بعضٍ من كُلٍّ

(غير) في قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، صفةٌ لـ﴿خَٰلِقٍ﴾، ويصحُّ حمْلُها على الاستثناء بمعنى: (ما من خالق إلّا الله)، والاستفهامُ في ﴿هَلۡ﴾ بمعنى النّفي، كما سبق، والفرقُ بين معنيَي (الوصف والاستثناء): أنّ (غير) إذا كانت صفةً لم توجب للاسم الذي وصفته بها شيئًا، ولم تنفِ عنه شيئًا؛ لأنَّه مذكور على سبيل التّخصيص بموصوفيّةِ (غير) له، فإذا قلتَ: (جاءني رجل غير زيد)، فقد وصفتَه بالمغايرة له، وعدمِ المماثلة، ولم تنفِ عن زيدٍ المجيءَ، وإنَّما هو بمنزلة قولك: (جاءني رجل ليس بزيد)، وكذا هنا

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 351.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 142.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 265.

في النّظم الكريم: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، فمعناه: ثبوتُ المغايرة وانتفاءُ المماثلة لِمَن انتفت عنه صفةُ الخالقيّة بينه وبين الله سبحانه، وليس في ذلك ثبوتُ الخالقيّة لله نصًّا، فالمراد هو اتّصافُ كلِّ منِ انتفى عنه الخالقيّة وهو المذكور في: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ بالمغايرة الواردة في: (غير الله)، وليس المراد نصًّا ثبوتَ الخالقيّة لله، وأمّا إذا كانت ﴿غَيۡرُ﴾ استثناءً، فإنّه إذا كان قبلها إيجابٌ، فما بعدها نفيٌ، وإذا كان قبلها نفيٌ، فما بعدها إيجاب، لأنّها هنا محمولةٌ على (إلّا)، فكان حكمُها كحكمه، فالمعنى حينئذ من قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، أي: (ثبوتُ الخالقيّة لله، ونفيُها عمّا عداه)، فكأنّه قال: (ما من خالقٍ إلّا الله)، وهذا هو الفرق بين معنى (غير) على الوصفيّة، ومعناها على الاستثناء[1].

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿غَيۡرُ﴾:

يـنـفـردُ الـلـه بصفة الخالقيّة والرّازقيّة

﴿غَيۡرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ اسمٌ متوغّلٌ في التّنكير والإبهام، فقوله: ﴿خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: غيرُ متميّز ولا متعيّن، فالمراد الإطلاقُ في الإبهام والإشاعة، أي: نفي الخالقيّة عن أيّ شيءٍ غيرِ الله سبحانه، والأشياء كلها متّصفةٌ بمغايرة الله سبحانه، وهذه المغايرة واقعةٌ من جهة الذّات ومن جهة الصّفة، فلا ذاتَ موجودةٌ هي مِثْلُ الله في ذاته، ولا شيء له صفةٌ كصفته سبحانه، ومنها الخالقيّةُ والرّازقيّة[2]، فأصل (غير) أن يكون وصفًا جاريًا على ما قبله تَحليةً له بالمغايرة، والاستثناء فيه عارِضٌ مُعارٌ من (إلّا)، فالذي لـ (غير) في أصله أن يكون وصفًا تابعًا في الإعراب لِما قبله، ومعناه المغايرةُ، وخلافُ المماثلة، ودلالتُه على ذلك من جهتين: من جهة الذّات، ومن جهة الصّفة، تقول: (مررت برجل

(1) ابن يعيش، المفصل: 2/ 71.
(2) ابن يعيش، المفصل: 2/ 70.

غير زيد) قاصدًا إلى أنّ مرورك كان بإنسان آخر، أو بمن ليست صفتُه صفتَه، وتطبيق ذلك على الآية هنا قد مَرّ[1].

عِلّةُ وصفِ النّكرة بالمضاف إلى أعرف المعارف:

نفيُ وجودِ خالقٍ غيرِ الله تعالى

منَ الثّابت أنّ النّكرة إذا أضيفت إلى معرفة اكتسبت تعريفًا، وفي قوله: ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ أضيفتْ ﴿غَيۡرُ﴾ إلى أعرف المعارف وهو اسمُ الذّات الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، ومع ذلك وقعت ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ صفةً لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ وهو نَكِرة، ولا تصلحُ المعرفة أن تقع وصفًا لنكرة، والعِلّةُ في وقوع ذلك هنا: أنّ لفظ ﴿غَيۡرُ﴾ موغِلٌ في التّنكير، فلا يكتسب تعريفًا في مثل هذا التّركيب[2]، وإيغالُه في التّنكير الدّالِّ على العموم يناسبُ نفيَ خالقٍ غيرِ الله تعالى.

موقعُ جملةِ ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ وأثرُه في البيان:

جملةُ (يرزقكم) استئنافٌ بيانيٌّ؛ لسؤالٍ سائلٍ عن لازمِ الإيجاد والخلق

جملة ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ استئنافيّةٌ، بعد تمام المبتدأ والخبر في الجملة قبْلها: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾، ولذا يكون الوقف هنا كافيًا، ثمّ الابتداء بـ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ وهو داخلٌ في حيّز النّفي والإنكار من قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾، ونكتةُ اختيار استئناف جملة ﴿يَرۡزُقُكُم﴾، وفصلُها في الإعراب عن جملة: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها لو جُعلَتْ وصفًا لـ﴿خَٰلِقٍ﴾، على معنى: (لا خالق موجودٌ متّصفٌ بالرّزق غير الله)؛ لكان معنى ذلك: نفيَ وجود خالقٍ موصوفٍ بوصفَي المُغايرة والرّازقيّة معًا، من غير تعرّضٍ لنفي وجود ما اتّصف بالمغايرة فقط، وهذا معنى فاسدٌ، ولو جعلت جملة: ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ خبرًا للمبتدأ: ﴿خَٰلِقٍ﴾، أو جعلت مفسِّرةً لمضْمَرٍ ارتفع به قولُه تعالى: ﴿خَٰلِقٍ﴾ على الفاعليّة، أي: (هل يرزقكم خالقٌ غيرُ الله)؛ لكان المعنى على ذلك: نفيَ رازقيّة خالقٍ مغايرٍ له تعالى، من غير تعرّضٍ لنفي وجودِه

(1) ابن يعيش، المفصل: 2/ 70.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 339، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 205.

رأسًا، مع أنّه المراد حتمًا، فكان في ذلك إيهامٌ مُخِلٌّ بالمعنى، فكان استئناف جملة ﴿يَرْزُقُكُم﴾ هو الأفصحَ والأوْلَى والأسْلَم[1].

نكتةُ اختصاصِ صفتَيِ الخالقيّةِ والرّازقيّةِ في إثبات الألوهيّةِ:

من لا يَخلقُ لا يَرزُقُ، ومن لا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ لا يستحقُّ العبادةَ

اختصاصُ صفة الخالقيّة والرّازقيّة في إثبات الألوهيّة في قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾؛ لأنّ هذين الوصفين هما أظهرُ دلائل الإلهيّة عند النّاس، فمن لا يَخلقُ لا يَرزُقُ، ومن لا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ لا يستحقُّ العبادةَ، فهذان الوصفان هما عِلّةُ استحقاق العبوديّة[2].

نكتةُ اقترانِ صفةِ الرّازقيّة بصفة الخالقيّة:

الخلْقُ بدون رزقٍ قصورٌ في الخالقيّة

اقترانُ صفةِ الرّازقيّة بصفة الخالقيّة في قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾؛ لمناسبةِ مطلع الآية؛ فإنّها في التّذكير بالإنعام الموجب للشّكر والإيمان، ولِتَقَعَ بهذا الاقتران الكنايةُ عنِ الاستدلال على انتفاء وصفِ الخالقيّة عن غيره تعالى؛ لأنّه لو كان غيره خالقًا، لكان رازقًا؛ إذِ الخلْقُ بدون رزقٍ قصورٌ في الخالقيّة؛ لأنّ المخلوق بدون رزق لا يلبثُ أن يصير إلى الهلاك والعدم، فيكون خلقه عبثًا يُنزّهُ عنه الموصوفُ بالإلهيّة المقتضية للحكمة، وأيضًا: للدّلالة بهذا الاقتران على اقتران نعمتَيِ الإيجاد والإمداد، فالإيجادُ حاصلٌ بالخلْق، والإمدادُ حاصلٌ بالرّزق[3].

بلاغةُ الكنايةِ في انفراد الله وحده بالخلْق والرّزق:

كونُ الله منفردًا بالرّزق يَستوجبُ الانقطاعَ عنِ التّأميل في الخلْق

انفرادُ الله وحده بالخلْق والرّزق كنايةٌ عن لازِمِه، وهو انقطاعُ أملِ كلِّ أحدٍ من غيره؛ حتّى من نفسه؛ فحصل بذلك الإخلاصُ له وحده سبحانه في عبوديّته، وابتغاءِ الرّزْق منه وحده، كما قال تعالى:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 143.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 255.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 255.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: 17][1].

معنَى ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

رزقُ الأرضِ أوسعُ منَ النّبات والطعام

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: من جهة السّماء والأرض، وفيه: أنّ الأرزاقَ شاملةٌ لمُخرجاتِ السّماء منَ الأمطار، ومخرجاتِ الأرض منَ النّبات والزّرع وسائرِ الخيرات الأرضيّة[2].

بلاغةُ الكنايةِ في تقييد الرّزق بـ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الرّزقُ كلُّه من عند الله ولو أجرى الله إيصالَه على يد أحدٍ من خلْقه

القيدُ بالجهَةِ في قوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أفاد تعدّدَ مصادر الأرزاق، بما ينبّه على سعتها وكثرتها، وفي ذلك كنايةٌ عن سعةِ المتفضّلِ بها والموجِد لأسبابها، وكنايةٌ أيضًا عن أنّه لا رازقَ إلّا الله، وإنْ توهّم الإنسانُ أنّ المخلوقَ قد يرزقُ بسبب العطايا التي يتداولُها النّاس فيما بينهم، فكونُ الرّزْقِ منَ السّماء والأرض اللذينِ هما عبارة عنِ الكون كلّه، يفيد أنّ الله أحاط بشأن الرّزْق، بإيداعه فيما يستوجبُ كمالَ الإحاطة والقدرة وهو السّماء والأرض، فيلزم عن ذلك أنّ المخلوقين لا يُنْسَب إليهم رِزْقٌ بحالٍ منَ الأحوال؛ لأنّ شأن الرّزق أعظمُ عليهم وأعجزُ لهم؛ لعجزِهم عنِ الإحاطة وقصورِهم بقلّة الوسع وضعف الطّاقة[3].

موقعُ جملةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

تحقيقُ كلمةِ التّوحيدِ هي الغايةُ منَ البدء بالخلْق، والعنايةِ بالرّزق

جملةُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير ما في حيّز النّفي والإنكار في الجملة قبْله، وهو قولُه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾، فالجملة نتيجةٌ عُقْبَ ذكْرِ الدّليل؛ إذ رتّب على انفرادِه بالخالقيّة والرازقيّة، انفرادَه بالإلهيّة؛ لأنّ هذين الوصفين هما أظهرُ دلائل الإلوهيّة عند النّاس.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 9.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 143.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 255.

وجملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أيضًا جاريةٌ مجرى الجواب على من يتوهّمُ الاستفهامَ حقيقيًّا في: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، فيُجاب بثبوت وحدانيّته[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾:

إذا كان العبد مخلوقًا مرزوقًا، فكيف يتكبَّرُ أو يُصْرَفُ

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تفريعيّةٌ؛ لترتيب مدخولِها على ما قبْلها، أي: لترتيب الإنكار عليهم في انصرافهم منَ الإيمان إلى الشِّرك على ما قبْلها من تقرير وحدانيّة الله الموجِبَةِ للإيمان واليقين، كأنّه قيل: وإذا تبيّن تفرّدُه تعالى بالألوهيّة والخالقيّة والرّازقيّة، فمِن أيّ وجْهٍ تُصرَفون عنِ التّوحيد إلى الشِّرك[2]؟!

دلالةُ (أنّى) في الآية:

الآفِكُ منصرفٌ عن وجه الحقيقة انصرافَ المنقلِب على وجهه

(أنّى) في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ اسمُ استفهام عنِ الحالة، أو عنِ المكان، أو عنِ الزمان، وهو بمعنى: (كيف)، أو (مِنْ أين)، أي: كيف، ومن أين، وبأيّ وجهٍ وحالٍ ينصرفون عن وجه الحقيقة انصرافَ المنقلِب على وجهه؟ والاستفهامُ مجازيٌّ، معناه الإنكارُ والاستعجابُ والتّوبيخُ والتّقريعُ، على طريقة المجاز المرسل لعلاقة الإطلاق والتّقييد، وفائدتُه: التّسجيلُ والنّعيُ عليهم بالإفْك والزّور، فكأنّه يقول لهم: أنتم من أهل الإفْك والتّطرّف في الكذب والضّلال؛ إذْ كيف تقرّون بأنّه الخالقُ وحده ثمّ تعبدون معه غيره[3].

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

لله سبيلٌ واحد يجمعُ ويَهدي، ولغيره ألفُ سبيلٍ يشتّتُ ويُحيِّر

لم يقل في السّياق الكريم: (مَنِ الذي أفَكَهُم)، ولذلك بنى الفعلَ لغير فاعله؛ لأنّ آفِكيهم أصنافٌ كثيرون، فحذْفُ الفاعلِ للتّعميم، وفيه كنايةٌ عن تمحُّضِهم في الضّلال والإفْك؛ لكثرة أوليائهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 143، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 255.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 143.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 9، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256، وابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 36، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 22/ 199.

وأئمّتهم في الغَواية، فلا سبيل لهم واضحٌ، بل هم حائرون في السّبُل، متوزّعون أشتاتًا لا ثبات لهم على مبدأ، ولا يقينَ لهم في مَسْلكٍ ومنهج، ومن كان كذلك فهو أبعدُ ما يكونُ عنِ استبصار الحقّ وتلمُّسِ آثارِ الهداية ودلائلِ الرّشاد[1]، وهم دائبون على هذه الحال بدلالة صيغةِ المضارع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 256.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»